

تطبيقات التربية الاصلاحية
في فكر الشيخ عبدالحميد بن باديس

د. بدر حمد العازمي

أستاذ مشارك

كلية التربية الأساسية – دولة الكويت

2017

Abstract:

The study concerned the investigation and analysis of corrective applications in the thought and education of Sheikh Abdul Hamid bin Badis (1889 - 1940) in Algeria. The study followed the descriptive analytical method, in accordance with the nature of the study and the analysis of documents and information from their primary sources, Ibn Badis himself, or magazines and newspapers, which he founded, and the study has included five sections Head are: first topic: intellectual and scientific when Ibn Badis life, and the second topic: aspects of the reform movement in the thought of Ibn Badis, and the third section: Education Forum reform at the Ibn Badis, and the fourth section: To balance between the intellectual theory and practice Fifth Section : Conclusion and general recommendations.

After tracing and studying the corrective aspects of the thought and education of Sheikh Abdul Hamid bin Badis, we find a beautiful picture that is almost harmoniously integrated between the call for theoretical and theoretical demands on the one hand, and its practical applications on the other hand, and concluded this study to the facts we formulate On the image of the results, and the commandments for further research and study, including:

1. The application of the saying of the work is a value mentioned by the Holy Quran, and the actor praises it by saying: "O you who believe, do not say what you do not do, it is greater than Allah to say what you do not do." From this point of view, the images of the practical applications of correctional education in Ibn Badis, which is the foundation of principles with practical applications, coincided with a remarkable harmony with his theoretical views. Which gave credibility to his call and acceptance among people.

2. The scope of the horizon and perceptions of Sheikh Abdul Hamid bin Badis in relation to the education of women, we find from the beginning declares that women share in the thought and methodology, where he called for education as the cornerstone of society and the foundation on which the generations were built, and this is already educational, Thinkers of this approach and several contrary to the custom and religion. Hence, the study recommends taking the views of Ibn Badis and his method in the applications of education for girls, and inspiration from his theories in this regard, what we need in the present time.

ملخص الدراسة :

اهتمت الدراسة بتقصي و بيان التطبيقات الإصلاحية في فكر و تربية الشيخ عبدالحميد بن باديس (١٨٨٩ – ١٩٤٠) في الجزائر ، و قد اتبعت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي ، و ذلك لمناسبته لطبيعة الدراسة و تحليل الوثائق و المعلومات من مصادرها الأولية و التي تمثلت بكتابات و مقالات ابن باديس نفسه ، أو المجلات و الصحف التي أسسها ، و قد اشتملت الدراسة على خمسة مباحث رئيسة و هي : المبحث الأول : الحياة الفكرية و العلمية عند ابن باديس ، و المبحث الثاني : مظاهر الحركة الإصلاحية في فكر ابن باديس ، و المبحث الثالث : تطبيقات التربية الإصلاحية عند ابن باديس ، و المبحث الرابع : الموازنة الفكرية بين النظرية و التطبيق . و المبحث الخامس : الخاتمة و التوصيات العامة .

بعد تتبع و دراسة النواحي الإصلاحية في فكر و تربية الشيخ عبدالحميد بن باديس ، تتضح لنا صورة جميلة تكاد تتكامل بشكل متناغم بين المناداة و المطالب الفكرية النظرية من جهة ، و بين تطبيقاتها العملية على أرض الواقع من جهة أخرى ، و خلصت هذه الدراسة إلى حقائق نصيغها على صورة نتائج ، و وصايا لمزيد من البحث و الدراسة و نذكر أهمها :

1. إن تطبيق القول بالعمل قيمة ذكرها القرآن الكريم ، و امتدح فاعلها بقول الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ، كبر مقتا عن الله أن تقولوا ما لا تفعلون) سورة الصف آية ٢ . و من هذا المنطلق تتجلى صور التطبيقات العملية للتربية الإصلاحية عند ابن باديس الذي قرن المبادئ بتطبيقات عملية تزامنت بتناغم ملحوظ مع آرائه النظرية . الأمر الذي أعطى مصداقية لدعوته و قبول بين الناس .

2. سعة أفق و مدارك الشيخ عبدالحميد بن باديس فيما يتعلق بتعليم المرأة ، فنجد منذ البداية يعلن أن للمرأة نصيب في فكره و منهجه ، حيث دعا إلى تعليمها باعتبارها ركيزة المجتمع و أساسه الذي تبنى عليه الأجيال ، و يعد هذا سبق تربوي ، في وقت رفض كثير من المفكرين هذا التوجه و عده تخالفا مع العرف و الدين . و من هنا توصي الدراسة بالأخذ بآراء ابن باديس و طريقتة في تطبيقات التعليم للبنات ، و الاستلهام من نظرياته في هذا الشأن ، فما أحوجنا إليها في وقتنا الحاضر .

الإطار النظري :

تنوعت اتجاهات التربية عند الشيخ عبد الحميد بن باديس (١٨٨٩ - ١٩٤٠) ، في بدايات القرن الماضي في المغرب العربي بشكل عام و في الجزائر على وجه الخصوص ، حيث تشكلت أصول التربية في مدارسه الفكرية التي أسسها على صورة لا تكاد تتغير حتى يومنا هذا ، و هي استنثار التوجهات الإصلاحية في التربية على باقي الأصول في فلسفته المعلنة و غير المعلنة . و من خلال الاستقراء و دراسة و تحليل أدبيات و مجالات جمعية العلماء المسلمين و الكتب التي ألفها الشيخ عبد الحميد بن باديس و أتباعه و المدارس و المؤسسات التي أسسها، يظهر لنا جليا تركيز جميع الأصول التربوية في فلسفته على التربية الإصلاحية بمختلف أنواعها الفردية منها و الجماعية.

و الإصلاح و التجديد، مفاهيم و ممارسات تتجدد من حين لآخر ، لتقويم مسار المجتمع و رده إلى طريق الاستقامة ، و جرت سنة الله في الكون أن يبعث في كل قرن من الزمان ، من يجدد هذا الدين و يقوم مساره و يرشد الناس إلى ما غفلوا عنه و يحق الحق و يبطل الباطل ، و جاء في هذا المعنى ، ما يرويه الصحابي الجليل أبو هريرة رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ (إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها). رواه أبو داود و صححه الالباني في السلسلة الصحيحة. و يوضح عمر عبيد حسنه هذا بقوله: (و المنهج النبوي أكد على أن عمليات الإصلاح و محاولات التغيير تبدأ من تحرير الإرادة و تحرير الضمير تبدأ من داخل النفس ذلك أن القيام بأي عمل مؤثر في الواقع الثقافي أو السياسي أو الاجتماعي غير ممكن قبل تحرير الإرادة و انعتاق الضمير من رواسب ذلك الواقع و تأثيراته الامر الذي يمكّن من إعادة صياغة الانسان و إعادة تشكيله باعتباره أداة التغيير و هدفه في وقت واحد). (حميداتو ، ١٩٩٧ : ١٣).

تأتي أهمية هذا الإصلاح ، في وقت حالك الظلمة مرت به البلاد العربية عامة و الجزائر على وجه الخصوص ، حيث سيطر الجهل ، و خيم الضلال ، و انتشرت البدع ، فكانت الحاجة إلى تربية إصلاحية تنهض بالأمة من جديد و تبعث فيها روح الخلاص . يصف أبو اليقظان نائب الأمين العام لجمعية العلماء المسلمين هذا بقوله : (مرت على الشعب الجزائري أحقاب متطاولة ، ساد فيها المبيدان ، الجهل و الخرافات ، و استغلها الفريقان ، الأمراء و الرؤساء الروحانيون ، فعاشت الأمة الجزائرية طيلة هذه الأحقاب بين فكي الجهالة و الفوضى الدينية ، تتقاذفها الأمواج من الفتن ، و تندافعها أعاصير من الشرور ، إلى أن قبض الله لها من أبنائها رجالا علماء حكماء هم لها بمثابة المطر). (جريدة البصائر ، العدد ١ ، السنة الاولى ص: ٥).

تسعى الدراسة الحالية إلى تتبع ملامح و تطبيقات التربية الإصلاحية المجتمعية ، و أبرز صورها في الواقع ، و تحويل المبادئ و النظريات الفلسفية إلى كيان ملموس يمكن مشاهدته و معاینته و المشاركة فيه و التفاعل معه. و ذلك عبر التعمق في محتوى فكر الشيخ عبد الحمید بن باديس رحمه الله ، و عرض و تحليل صور التربية الإصلاحية في منهجه التربوي ، و استثمار كنوز المنهج التربوي الإسلامي في كتبه و تراثه و آثاره الفكرية النظرية منها و العملية ، استنادا إلى دراسة منهجية نتقصى فيها خطوات دقيقة ، نصل من خلالها إلى استدلالات و نتائج علمية تثري الفكر ، و تساهم في تطوره ، و بناء أركانه على أسس علمية متينة .

يؤكد الباحثان الكندري و ملك هذا المعنى بقولهما : (يتضمن التراث الإسلامي الضخم مضامين ثقافية هي مجسات و مؤشرات فكرية من شأنها أن تكشف مجموعة من نقاط القوة و الضعف ، في مسيرة التربية الإسلامية ، و أحوال المجتمع المسلم و ملامح الانسانية و خصائصه الثقافية . و الأبحاث الموسعة وسيلة من وسائل رصد الماضي و استثماره عبر التدبير التربوي و استبصار معطيات الاسلاف لتدعيم الحاضر و تخصيب الفكر الإنساني ، و توسيع آفاقه بالأصالة و المعاصرة ، فهما نبع النبوغ ، و قوام الابداع ، و معين التنوع .) (الكندري و ملك ، ٢٠١٠ : ٣) .

و يتضح لنا من سيرة و حياة الشيخ عبد الحمید بن باديس أنه استكشف الواقع المحيط به و درس حالته السياسية و الاجتماعية و تشرب طبيعتها العامة و الخاصة حتى تشكلت في ذهنه صورة للمجتمع الإصلاحية الذي ستنتقل منه مسيرة التربية الإصلاحية، من ثوابت الامة و تراثها الفكري و الاجتماعي بما لا يتعارض من هذه الثوابت. جاء عبد الحمید ونور الإسلام في الجزائر يكاد يخبو إلا من بصيص يظهر هنا أو هناك. وفي سنوات قلائل – من عمر الشعوب- جعل الجزائر من أقصاها إلى أقصاها تضيء بالنور الرباني، فانتشرت المدارس، والمعاهد، والنوادي، والجمعيات وتراجعت برامج الفرنسة والإدماج، وانطفأت نيران البدع والخرافات والضلالات، وأصبح الشعب الجزائري يردد (الإسلام ديني، والجزائر بلادي، واللغة العربية لغتي). (مطبقاني ١٩٩٩، ٢) .

ونرى عمليات النقد الدقيقة للوضع السائد في المجتمع التي مر بها الشيخ عبد الحمید بن باديس بنفسه و مارسها مع أقرانه، حتى اتضحت له الصورة الإصلاحية التي يرنو إليها و يسعى لتحقيقها في نفسه أولا، و من ثم في الآخرين من حوله. فقد تركزت معايير الإصلاح عند بن باديس على قيم (الكتاب والسنة المطهرة) وكانت الأصول الدينية لفكره التربوي واضحة جلية منذ البداية، وهي ليست ردة فعل على الوضع الاستعماري الفرنسي في ذلك الوقت فحسب، بل هو اعتقاد فكري تنطلق منه التربية الإصلاحية التي يريدتها و هي بالفعل ما تشكل لاحقا في مدارسها و مناهج التعليم التي أسسها. و يعد نقد عبد الحمید بن باديس للواقع إثارة للتفكير واستنتاج

جوانب الخطأ والصواب. يصف هذا رفيق دربه البشير الابراهيمي (ت : ١٩٦٥) في قوله : (و له في القرآن رأي بنى عليه كل أعماله في العلم و الإصلاح و التربية و التعليم ، و هو أنه لا فلاح للمسلمين إلا بالرجوع إلى هديه و الاستقامة على طريقته ، و هو رأي الهداة المصلحين من قبله). (محمود ، ٢٠١٥ : ١٢). و كان يقول (لن يصلح هذا التعليم إلا إذا رجعنا به للتعليم النبوي في شكله و موضوعه ، في مادته و صورته ، فيما كان يعلم عليه الصلاة و السلام ، و في صورة تعليمه). (انظر مجالس التذكير : ابن باديس ص : ١٠٧)

إن مثل هذه الدعوات الإصلاحية التي تنطلق من منطلقات الفكر التربوي الإسلامي و تبتغي نشر الفضائل في المجتمعات الإسلامية ، تساهم في زرع قيم و سلوكيات ذات دلالات سوية و مستقيمة و إن لم تكتمل هذه الدعوات و تنجح على المستوي السياسي أو الاجتماعي ، و المجتمع يحتاج مؤسسات ترعى و تنشر هذه القيم المستمدة من (الكتاب و السنة المطهرة) . يقول عبدالله : (أن ابن باديس لم يأل جهدا في خدمة الإسلام و القرآن و لغتهما بكل الوسائل المتاحة في عصره إلى أسلم الروح إلى بارئها). (عبدالله ، ٢٠١٥ : ٢). و من باب التجديد الإصلاحي جاءت الحاجة لتسويقها على صور قيم و أخلاق يرتكز عليها المنهج التربوي ، و تدرّس للطلاب في مؤسسات التعليم بمختلف مستوياتها . يؤكد عمر عبيد حسنه هذا الاتجاه بقوله (إن دعوات الإصلاح و التجديد التي نبتت في التربية الإسلامية و على الرغم مما أدركها من الخطأ و النقص و التقصير ، الأمر الذي حال دون بلوغها أهدافها كاملة ، إلا أنها تركت رصيذا طيبا في ضمير الأمة ، و جددت ذاكرتها تجاه واقعها الأليم ، و بصرتها بأعدائها الذين كادوا يلبسون عليها ، و مكنتها من الاحتفاظ بقيمتها ، و الاستشعار بأن القيم الإسلامية في الكتاب و السنة ، هي سبيل الخروج و سفينة النجاة ، و إن لن تستطع أن تفلح بشكل كامل في تقديم الأوعية المطلوبة لحركة الأمة في اتجاه عودتها للإسلام ، و تحويل المبادئ إلى برامج و السياسات إلى خطط و ممارسات). (محمود ، ٢٠١٥ : ٢٠).

فمنذ البداية تركزت صور الإصلاح التربوي و تطبيقاته على دلالات ذات صلة بما نصت عليه الشريعة الإسلامية حيث يستمد فكر ابن باديس كل مقوماته منها ، و هي كما أشرنا سابقا (الكتاب و السنة المطهرة) و نرى هذا التوجه واضحا في العدد الاول من جريدة المنتقد التي صدرت في عام ١٩٢٥ حيث صدرت افتتاحية العدد بهذه الدعوة بكل وضوح : (نحن قوم مسلمون جزائريون في نطاق مستعمرات الجمهورية الفرنسية فأننا مسلمون نعمل على المحافظة على تقاليد ديننا التي تدعو إلى كل كمال إنساني ، و نحرص على الاخوة و السلام بين شعوب البشر ، و في المحافظة على هذه التقاليد المحافظة على أهم مقومات قوميتنا و أعظم أسباب سعادتنا ، و أن الدين قوة عظيمة لا يمكن الاستهانة بها .) (جريدة المنتقد ، العدد ١ ، السنة الاولى ١٩٢٥)

لماذا هذه الدراسة ؟

إن الحاجة التي أيقنها الباحث للبدء بهذه الدراسة ، تأتي من عدم تركيزنا على تراثنا التربوي ، و مخزوننا الفكري الذي انطمر بين صفحات التاريخ ، و سجل الماضي ، (و إن عودتنا إلى التراث التربوي الإسلامي سوف تظهر لنا مقدار اسهامانا في تطور الفكر التربوي العالمي ، و مقدار قدرتنا على أن نسهم اليوم من جديد في صياغة هذا الفكر و توجيهه). (النقيب ، ٢٠٠٤ : ٦٩). و من ناحية أخرى نتجنب أخطاء الماضي لنصنع حاضرنا و نشكل مستقبلنا على نحو يدمجنا في عالم كوني متغير تتجدد ابداعاته على نحو غير مسبوق في تاريخ البشرية). (قمبر ، ٢٠٠٦ : ٢٧). إن طغيان الجانب النظري لكثير من الدراسات التربوية ، الأمر الذي تعدى إلى منابع الفكر ، و أصوله ، فنجد أن الكثير من كنوز الفكر التربوي الإسلامي ذهب أدراج الرياح و تعرض للضياع و الاندثار ، و ذلك لأن أغلب الدراسات و التجارب التي أشرفت على شرح و تبيان هذا الفكر كانت دراسات و تجارب نظرية مجردة ، ليس لها تطبيقات على أرض الواقع ، و من هنا جاءت الحاجة إلى دراسات تربط الجانب النظري بالتطبيقي ، و ربما أطلق عليه البعض مصطلح (فقه الواقع) أو (معرفة الحال) ، و هو التناغم و المزج بين العلم و الواقع الحالي ، و غيرها من توصيف كلها تقودك إلى الحقيقة الواضحة ، و هي دلالات التطبيق العملي للنظريات الفكرية .

و يرى الباحث أن الأفكار النظرية المجردة تظل معلقة بين صفحات الكتب و على أرفف المكتبات ، ما لم ترتبط بدراسات و تجارب ذات طبيعة تطبيقية توضح مسار النظريات الفكرية على أرض الواقع ، و هذا الذي فعله ابن باديس حين أدرك أن التوجيهات النظرية التي اشتملت عليها حركة الإصلاح عند جمال الدين الافغاني ، و محمد عبده و غيرهم من رواد الإصلاح و النهضة الفكرية الذين سبقوه أو عاصروه ، أدرك أنها اهتمت كثيرا بالجانب النظري و لم تتوازن بالجانب العملي التطبيقي معه ، الأمر الذي جعل من فكرهم مراجع يستأنس بها ليس أكثر ، و من هنا اختلف ابن باديس معهم في هذا الاطار ، و بدأ بالتطبيق لأفكاره التي آمن بها ، (إن ابن باديس عند وضعه لمناهج التعليم ، لم يكن مذهبه مثاليا مبيناً على تصورات نظرية ، بل كان واقعياً ، أملاًه متطلبات العصر ، و أولويات المجتمع و معتقداته . (حميداتو ، ١٩٩٧ : ١٣٣) . و لذلك نرى أن عناية ابن باديس بموضوع التربية ، ليست عناية الباحث المنظر ، الذي لا شأنه له بالتطبيق العملي ، بل كان يمارس ذلك كل يوم في حلقات الدروس في الكتاتيب و المدارس ، حتى في النوادي و الأسواق . و لذلك نجده على سعة علمه و غزارة فكره ، مقل جداً بالتالف و الكتابة ، بل أن أغلب كتبه كانت من جمع تلاميذه لبعض شروحه و

دروسه و مقالاته بالمجلات ، و على النقيض تماما ، تتجلى صور الجانب التطبيقي للفكر و التربية عند ابن باديس ، فنجده مشغولا بالعمل و تربية النشء و التعليم و تقديم الدروس منذ الصباح الباكر و حتى منتصف الليل ، نظرا لإيمانه بإمكانية تطبيق النظريات التربوية في الكتاب و السنة المطهرة إلى واقع عملي ، و يؤكد هذا المعنى الدكتور عبدالحليم عويس أستاذ التاريخ الإسلامي الذي كتب حول دور جمعية العلماء المسلمين في تصحيح العقائد ، و تحرير العقول . و نراه يشيد بفكر و منهج ابن باديس فيقول : (إن ابن باديس كان يؤمن إيماناً لا حدود له بدور القرآن الكريم في تكوين الجيل المنشود ، على غرار الجيل الذي كونه القرآن الكريم في العصور الأولى للإسلام) . (الزركلي ، ١٩٧٩ : ٨٥) . و يرى الباحث ، أن الباعث على هذا كله ، هو الإيمان بإمكانية تطبيق التربية الإصلاحية على أرض الواقع ، و تلافي أخطاء السابقين ، و الخوف من استحالة فكره إلى نظريات و مقولات ، بدلا من حوادث و إنجازات ، و في هذا الصدد جاءت أهمية هذه الدراسة بتوضيح و تبيان تطبيقات التربية الإصلاحية ، و بلا شك ابن باديس نموذجا .

منهجية الدراسة :

هذه دراسة تحليلية وصفية ، تقوم على تحليل المحتوى و المضمون العلمي في فكر و أدبيات الشيخ عبدالحميد بن باديس ، و تقييمه ، و نقده ، و بيان مظاهر التجديد فيه ، و أبرز الاسهامات التطبيقية التي أضافها على الفكر التربوي الإسلامي المعاصر فيما يخص التربية الإصلاحية موضوع الدراسة ، (و دراسات تحليل المضمون تتم من غير اتصال مباشر مع المصادر البشرية ، حيث يكتفي الباحث باختيار عدد من الوثائق المرتبطة بموضوع بحثه مثل السجلات و القوانين و الانظمة و الصحف و المجلات و برامج التلفزيون و الكتب و غيرها من المواد التي تحوي المعلومات التي يبحث عنها الباحث) . (عبيدات و آخرون ، ١٩٨٩ : ٢١١) . و ستركز الدراسة على الجوانب العملية ، و تطبيقات النظريات الفكرية في مدارس ابن باديس على مختلف مستوياتها ، مع الاهتمام بتطبيقات التربية الإصلاحية على وجه الخصوص ، (و يلجأ الباحثون هنا إلى الوثائق المدون فيها معلومات أو قرارات أو قوانين تخص جانبا معينا من جوانب التعليم و يقومون بدراسة و تحليل هذه المعلومات بهدف الوصول إلى بعض التعميمات أو الاستنتاجات التي ترتبط بذلك الجانب) . (الكندري و آخرون ، ٢٠٠٠ : ١١٦) .

أسئلة الدراسة :

يمكن توضيح معالم الدراسة من خلال أسئلة الدراسة و مباحثها الرئيسية و التي سيحاول الباحث الإجابة عليها و توضيحها مستعينا بشكل مباشر على المصادر الاولية في هذا السياق ، من كتابات و مؤلفات الشيخ عبدالحميد بن باديس نفسه سواء في تفسير القران الكريم (مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير) و الذي أسقط من خلاله العديد من الشروح و المبادئ لفكره و فلسفته . أو القرارات و القوانين التي صدرت من جمعية العلماء المسلمين الجزائريين باعتبارها الواجهة الرسمية التي يعمل من خلالها ابن باديس و يطبق فيها جميع أفكاره ، أو من خلال المجلات و الصحف التي أصدرها كمجلة الشهاب ، و البصائر ، و المنتقد ، و غيرها من مصادر أولية . كما تستعين الدراسة بكتابات زملائه و تلاميذه و رفقاء رده في التربية و النضال ، أمثال محمد البشير الابراهيمي ، و الطيب العقبي ، و الشيخ الونيسي ، غيرهم من الفضلاء . و تصف مجلة الشهاب هؤلاء و دورهم بوصفها : (فهذا (الباديسي) المجدد بعظاته الاعتدالية النيرة التي ما هي إلا الشمس التي كان يستمد منها صدر الإسلام . و هذا (العقبي) بزواجه المخيفة ، التي ما هي إلا نور ساطع للمؤمنين الصادقين ، و رجوم للشياطين المتعنتين . و هذا (الملي) بوطنياته النافعة التي ما هي إلا مرهم و شفاء لما في الصدور . و هذا (الفرقد) بنيراته السامية التي ما هي إلا نهضة فوارة بالإخلاص . و هذا (أبو اليقظان) بإرشاداته و نصائحه العالية التي ما هي إلا هدية نفسية لأبناء شعبه . (مجلة الشهاب ، العدد ٤ السنة الاولى ص: ٨) . و سوف تحاول الدراسة الإجابة على الأسئلة التالية :

- ١- ما هي أبرز ملامح الحياة الفكرية عند الشيخ ابن باديس ؟
 - ٢- ماهي أبرز مظاهر الحركة الاصلاحية في فكر الشيخ ابن باديس ؟
 - ٣- ما هو تأثير تطبيقات التربية الاصلاحية عند الشيخ ابن باديس على المجتمع الجزائري ؟
 - ٤- الموازنة و التكامل بين النظرية و التطبيق في فكر ابن باديس .
- من خلال الأسئلة أعلاه ، نتضح لنا مباحث الدراسة و يمكن حصرها بخمسة مباحث و هي :

المبحث الأول : الحياة الفكرية و العلمية عند ابن باديس .

المبحث الثاني : مظاهر الحركة الإصلاحية في فكر ابن باديس .

المبحث الثالث : تطبيقات التربية الإصلاحية عند ابن باديس .

المبحث الرابع : الموازنة الفكرية بين النظرية و التطبيق .

المبحث الخامس : الخاتمة و التوصيات العامة .

حدود الدراسة :

تقتصر هذه الدراسة على تسليط الضوء على الجوانب التطبيقية للتربية الإصلاحية عند ابن باديس ، و سوف تركز هذه الدراسة على النواحي العملية في فكره ، أكثر من عرضها للفلسفة الفكرية المجردة ، الامر الذي يجعلنا نسقط آرائه النظرية على تطبيقاتها في الواقع و على المجتمع الجزائري ، و سوف نحاول قدر الإمكان توضيح ذلك و ذكر الأمثلة عليه.

الدراسات السابقة :

اعتمدت الدراسة الحالية على عدّة مصادر و مراجع لمؤرخين جزائريين و كتاب من العالم العربي و الاسلامي ، حسب ما اقتضته ضرورة الدراسة ، فضلا عن المقابلات الشخصية لأفراد أسرة ابن باديس و أصحابه و رفقاء دربه ممن لا يزال على قيد الحياة و التي أثرت مدارك الباحث في فهم الكثير من أسلوب و منهج ابن باديس في الإدارة و القيادة ، و استعانت الدراسة بالمصادر الأولية من صحف و مجلات من صحافة الحركة الإصلاحية التي أسسها ابن باديس نفسه مثل : مجلة الشهاب ، و المنتقد ، و الأصراط السوي و البصائر. كما وظّفت العديد من الكتب التي تحدّثت عن الإشكالية بشكل مباشر . كذلك رجعت الدراسة إلى سجّل جمعية العلماء المسلمين التي كانت بداية لكل هذا المشوار الاصلاحى ، و هو مصدر ضم العديد من المقالات التي كتبها رجال الإصلاح ، و كتب و دراسات مختلفة ، بالإضافة إلى مقابلات شخصية قام بها الباحث خصيصا أثناء زيارته لمدينة قسنطينة مسقط رأس الشيخ عبد الحميد بن باديس ، و زيارة منزل العائلة و الالتقاء بأخيه (الشيخ عبدالحق بن باديس) الذي يناهز من العمر ٩٣ عاما ، و سؤاله عن الدور التربوي و التعليمي للشيخ ابن باديس ، و زيارة مقر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والالتقاء برئيس الجمعية الدكتور فيلالي و الحصول على العديد من المراجع و الكتب و المجلات النادرة التي ساهمت في تحرير هذه الدراسة ، و نذكر من الدراسات السابقة التي استفادت منها الدراسة الحالية ما يلي :

دراسة بعنوان : (الحركة الإصلاحية في الفكر الإسلامي المعاصر ، الشيخ عبد الحميد بن باديس)، 2010 لمحمد طّهاري ، و الذي تحدث عن جوانب الاصلاح عند ابن باديس و تطرق إلى صور الإصلاح في مجالات عديدة ولم يتطرق إلى نواحي التربية بصورة مباشرة الا في ذكر انجازات ابن باديس للمدارس و الصحافة ، في حين ركزت الدراسة على جوانب أخرى للإصلاح خلاف ما ركزت عليه الدراسة الحالية.

دراسة بعنوان : (الحركة الوطنية الجزائرية لشيخ المؤرخين الجزائريين) 1992 أبو القاسم سعد الله ، و(تاريخ الجزائر المعاصر دراسات ووثائق) 2009 لمحمد الأمين بلغيث ، حيث فصلت الدراسات في الاوضاع الاجتماعية و السياسية للمجتمع الجزائري في فترة ابن باديس و تأسيسه للجمعية و بداية النضال و ذكروا دور الطرق الصوفية الايجابية منها و السلبي و مظاهر الاصلاح التي عاصرت تلك الفترة ، و لكنها ايضا لم تتحدث عن التربية الاصلاحية و لم تشر إليها الا اشارات عابرة .

دراسة بعنوان : (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و دورها في تطور الحركة الوطنية الجزائرية) 1981 لعبد الكريم بو صفصاف و دراسة تركي رابح بعنوان: (التعليم القومي و الشخصية الجزائرية 1931 – 1956 دراسة تربوية للشخصية الجزائرية) 1981 و(الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي و التربية في الجزائر) . إضافة إلى بعض المراجع التي أرخت للحركة الإعلامية ، و دراسة بعنوان: (الشيخ عبد الحميد بن باديس باعث النهضة الإسلامية العربية في الجزائر المعاصرة) للمؤلف تركي رابح ٢٠٠٣ . هذه الدراسات شبه متكاملة و بالأخص التي كتبها الاستاذ تركي رابح مؤرخ الجمعية ، و الذي أسهمت كتاباته عن الشيخ عبدالحميد بن باديس بحفظ الكثير من تاريخ الجمعية ، غير أنها كذلك لم تتناول تفاصيل التربية الاصلاحية على وجه الخصوص ، رغم تناولها التفصيل بدور الجمعية التربوي ، و ذكر المدارس و لكن دون تحليل لآثارها أو مضمونها .

دراسة بعنوان: (عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح و النهضة في تاريخ الجزائر الحديث) 2003 للمؤلف فهمي توفيق محمد مقبل ، و هي دراسة قيمة تناول فيها الباحث أدوارا عديدة للجمعية و تحدثت الدراسة عن أصول الفكر عند ابن باديس ، و امتداده إلى فكر محمد عبده و جمال الدين الافغاني و غيرهم من رواد النهضة الحديثة ، غير أن الدراسة تختلف عن الدراسة الحالية لاهتمامها كثيرا بالنواحي التاريخية ، فضلا على أنها لم تتطرق إلى تطبيقات النظرية التربوية عند ابن باديس .

دراسة بعنوان: (الإمام عبد الحميد بن باديس رائد النهضة العلمية و الفكرية) للمؤلف الزبير بن رّحال . و دراسة بعنوان : (تجربة التجديد و الإصلاح في فكر ابن باديس و محمد عبده) 2011 للمؤلف شريف رضا ، اهتمت الدراسات في تبيان ملامح التجديد عند ابن باديس دون التطرق للتربية الاصلاحية أو نقدها و تقييمها . بخلاف الدراسة الحالية التي ركزت على آثار التربية الاصلاحية عند ابن باديس و فصلت في تطبيقاتها .

دراسة بعنوان : (الفكر السياسي عند العلامة عبد الحميد بن باديس) 2010 ، للمؤلف مالك بن خليف . و دراسة (منهجية الدعوة عند الشيخ عبد الحميد بن باديس) أطروحة جامعية مقدمة لنيل شهادة الماجستير في العلوم الإسلامية تخصص أصول الدين ، كلية أصول الدين ، جامعة الجزائر ، 1999 ، للمؤلف الطيب شارف ، و دراسة بعنوان : (الفكر السياسي عند الشيخ عبد الحميد بن باديس)، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في العلوم الإسلامية تخصص أصول الدين ، كلية أصول الدين ، جامعة الجزائر ، 2001 ، للمؤلف مسعود جباري ، اجتمعت هذه الدراسات على توضيح الجانب السياسي بشكل خاص ، و شرح ظروف المجتمع الجزائري و ما مرت به جمعية العلماء المسلمين من تطورات و مراحل ، دون ذكر للتربية الإصلاحية كما هو الحال في الدراسة الحالية ، مع أنها ذكرت العديد من النواحي الإصلاحية في جوانب أخرى.

دراسة بعنوان : (آثار ابن باديس) ١٩٦٨ ، للدكتور عمار الطالبلي. يقول المفكر مالك بن نبي في مقدمة هذا الكتاب: حين أقدم هنا لدراسة عن ابن باديس أشعر بلذة مزدوجة. فما كان أشد إغراء مثل هذا الموضوع في بلد ما يزال من شاهد حياة الشيخ وأثره كثيرا عددهم، ولكن ما أصعبه من موضوع إذ الحقيقة أنه لا يمكن أن يخلو حكم معاصر على أحداث عهده ورجاله من نظرة ذاتية إلا نادرا . تحدثت الدراسة عن حياة ابن باديس و أبرز الآثار و المواقف التي عاشها ، و فصلت في السيرة الخاصة فيه ، و لم تتطرق الي أي من أنواع التربية أو منهجه الفكري بشيء من التحليل ، على خلاف الدراسة الحالية التي اهتمت بهذا على وجه الخصوص .

نظرة عامة على الدراسات السابقة :

بالنظر إلى الدراسات السابقة ، نجد العديد منها أهتم بتوضيح الجانب السياسي و تأثيرات الاحتلال الفرنسي على الهوية العربية و الإسلامية للشعب الجزائري ، و كانت أغلب الدراسات القديمة منها و الحديثة ، تشير إلى تداعيات الاحتلال و آثاره الفكرية و الدينية و الاجتماعية و التربوية ، و هي بلا شك ، دراسات أسهمت في تأريخ و توضيح طبيعة تلك الفترة و محاولة الاستفادة منها ، غير أن الدراسة الحالية اقتصرت على تبيان التربية الإصلاحية في فكر ابن باديس ، ليس هذا فحسب ، بل و تطبيقاتها العملية على أرض الواقع ، و لم تتطرق هذه الدراسة لأي جانب من جوانب السياسة أو الاجتماع ، بل ركزت بشكل مباشر على تطبيقات النواحي التربوية و الفكرية .

المبحث الأول : الحياة الفكرية و العلمية لابن باديس .

أولاً : المولد و النشأة

هو عبدالحميد بن محمد بن المصطفى بن مكى بن باديس و ينتهي نسبه إلى جده المعز بن باديس مؤسس الدولة الصنهاجية ، ولد بمدينة قسنطينة بالجزائر عام ١٨٨٩ للميلاد من عائلة ذات نسب و جاه ، معروفة في تاريخ الجزائر في العلم و الثراء . بدأ ابن باديس دراسته في مدينة قسنطينة مسقط رأسه و كانت عاصمة الشرق الجزائري ، و تعلم اللغة العربية و مبادئ الشريعة الإسلامية على يد الشيخ حمدان الونيسي (ت : ١٩٢٠) و حفظ القرآن الكريم و صلى بالناس إماما على صغر سنه . (الطالب ص ، ١٩٦٨ : ٧٤) .

سافر ابن باديس إلى تونس لإتمام دراسته حيث مكث فيها أربع سنوات من الفترة ١٩٠٨ حتى ١٩١٢ بهدف الاستزادة من العلم الشرعي و التحق بجامع الزيتونة ، و درس الأدب على يد العلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور (ت : ١٩٧٣) و كان رئيس الجامعة آنذاك . ثم درس التفسير على يد الشيخ العالم محمد القيرواني (ت : ١٩٢٥) و بعدها جلس ابن باديس في تونس و درّس في جامع الزيتونة . (انظر قاسم ، ١٩٧٩ : ١٦) .

عقد ابن باديس النية على التوجه إلى دول المشرق العربي ، فقد شعر أنه بحاجة للقيام باتصال مباشر مع مواقع الفكر الإصلاحية في المشرق ، و كان للمشرق سبق في تجربة عمليات الإصلاح التربوي على ميادين كثيرة ، فبدأ رحلته في عام ١٩١٣ إلى الحجاز لأداء فريضة الحج حيث التقى من جديد بأستاذه حمدان الونيسي ، و تعرف للمرة الأولى على الشيخ البشير الابراهيمي و الذي أصبح أخاه و رفيق دربه في الكفاح الوطني ، كما التقى الشيخ الجليل حسين الهندي (ت : ١٩٥٧) الذي أشار إليه لاحقا بالرجوع إلى الجزائر و استكمال مسيرة الإصلاح من هناك . (مقبل ، ٢٠٠٣ : ١٢) . و هنا ترغّب الدراسة الحالية في تسليط الضوء على هذه النصيحة الثمينة من الشيخ الهندي ، الذي أدرك بحكم تجاربه السابقة أن الإصلاح يكون من الداخل ، والإصلاح الذي يبدأ من أهل البلد تكون نتائجه أبلغ و أكمل من الإصلاح الذي يأتي مستوردا من الخارج ، و إن اختلفت موازين القوة بين الداخل و الخارج . و لإن يبدأ المصلح عمليات الإصلاح في مجتمعه الذي عاش فيه و ترعرع ، أفضل من أداء هذه المهمة لمصلحين من الخارج و إن كانوا على درجة رفيعة من العلم و الفقه بالواقع ، و ذلك لأن فهم و معرفة طبيعة المجتمع عنصر هام في مراحل التأسيس ، لا يدركه الا من تربى و عاش فيه . و تستنتج الدراسة الحالية من هذه النصيحة و التي حتماً لم تأت عرضاً أو تعليقا ، بل أتت بأسلوب منهجي يدرك أهميتها في الواقع ، و قد كان ، فلا نتوقع نجاح أي عملية للإصلاح في الجزائر بتلك الفترة من غير تدخل

مصلحين من المجتمع ذاته ، و لعل هذه القاعدة تنطوي على مجتمعات أخرى ، و إن كانت أقل تعقيدا من المجتمع الجزائري آنذاك.

وتزعم ابن باديس خلال عقد العشرينيات التيار الوطني عبر حركة الإصلاح وجعل وصحبه من العلماء والمشائخ من المساجد مراكز وعظ وإرشاد ودعوة إلى الكفاح في سبيل الإسلام والاستقلال والعروبة . وأصدر مجلة «الشهاب» العلمية الدينية الأدبية ثم قاد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي تأسست في 5 مايو عام 1931 وضمت 72 عالماً جزائرياً من مختلف التيارات الدينية . ومع أن ابن باديس لم يحضر الاجتماع التأسيسي إلا في اليوم الثالث والأخير فقد انتخب غيابياً رئيساً لمجلس إدارتها الذي ضم 13 عضواً . (جمال الدين ، ٢٠١٠ : ٨) .

ثانيا : أهداف التربية عند ابن باديس

تلقت أهداف التربية الإسلامية العامة مع أهداف التربية عند ابن باديس وذلك يرجع إلى ان ابن باديس مصلح ديني وتربوي ويستمد فلسفته في الإصلاح من روح الحضارة الإسلامية ثم من واقع مجتمعه المسلم العربي ، و بهذا يقول ابن باديس : (لن يصلح هذا التعليم الا اذا رجعنا به للتعليم النبوي في شكله و موضوعه ، و مادته و صورته ، فيما كان الرسول صلي الله عليه و سلم ، و في صورة تعليمه) . (مجلة الشهاب ١٠ أكتوبر ١٩٣٤) . و كرر أكثر من مرة في تفسيره لبعض الآيات بضرورة أن يكون التعليم صانعا للمسلم ، و يشكل صورته حسب ما جاءت به تعاليم الإسلام فيقول : (و نعني بالتعليم : التعليم الذي يكون به المسلم عالما من علماء الإسلام ، و يأخذ عنه الناس دينهم ، و يقتدون به فيه) . (آثار ابن باديس ، مجلة الشهاب ج ١٢ نوفمبر ١٩٣٤ ص:٧٤) . وفيما يلي بعض الاهداف التربوية في فكر ابن باديس و التي لخصها تركي رابح مؤرخ الحركة و كاتبها :

1. اعداد الفرد الجزائري للحياة :

والمقصود بالإعداد للحياة هو الإعداد الكامل الذي يشمل الحياة العقلية والاجتماعية والاخلاقية والاقتصادية والسياسية فابن باديس كان يرى أن تربية الفرد الجزائري من اجل اعداده الكامل للحياة يعتبر من أهم الاهداف التربوية التي ينبغي ان تسخر الجهود في سبيلها ، ومن هنا عمل ابن باديس على تربية أبناء الجزائر تربية عالية أعدت منهم رجالا ناجحين في حياتهم العامة وساهموا في خدمة بلدهم والنهوض بها .

2. كمال الحياة الفردية والاجتماعية :

ويقصد بها تكوين الشخصية المتكاملة على المستوى الفردي والاجتماعي فالفرد في نظر ابن باديس هو الخلية الاولى في بناء المجتمع لان المجتمع عبارة عن مجموعة من الافراد وعلى قدر تربية هؤلاء الافراد وتهذيبهم واستقامتهم تكون تربية المجتمع وتهذيبه واستقامته فالمجتمع مرآة لأفراده ومن هنا تتجه فلسفة ابن باديس إلى تحقيق كمال الحياة للفرد والمجتمع معا عن طريق بناء الشخصية الفردية والقومية والاجتماعية للجزائريين .

3. النهوض بالجزائريين إلى الشعوب الراقية .

وهذا الهدف يعتبر من الاهداف الكبرى التي عاش ابن باديس لها وسعى إلى تحقيقها بواسطة التربية والتعليم والاصلاح الديني ونشاطه في الصحافة ، فوجد أسس المدارس و فتح المؤسسات التعليمية لرفع شأن المجتمع . (رابح ، ١٩٨٢ : ٣٥٧) .

ثالثا : الجهود العلمية و الفكرية للشيخ ابن باديس

خلف ابن باديس أثارا علمية و فكرية لا تزال ننهل منها أطيب الحديث ، و أعذب المعاني ، من شروح و تفاسير و و تحليلات تربوية و شرعية و فكرية بل و سياسية ، ساهمت في صقل شخصية الاتباع و طلبة العلم داخليا و خارجيا ، و امتاز أسلوبه بالعمق الشرعي الممزوج بمعرفة و دراية لفقه الواقع الذي دائما ما يتقل على الشعب الجزائري من ممارسات الاحتلال الفرنسي الجاثم على صدورهم ، و صبغ الشعب العربي المسلم بصبغة الغرب التي لا تتناسب اجتماعيا و لا فكريا مع المحيط العربي بالجزائر و طبيعة الشعب المحافظ . و لقد ظل ابن باديس وفيما لمنهجه العلمي وهو إعداد الجيل وتربية النشء وقد وصفه أحد الباحثين فقال: (وهكذا عاش ابن باديس عالما لم يستهوه التنظير ولا شغلته الجاذبيات التأملية والفكرية التي نجدها تستهلب كثيرا من أهل الفكر وتشدهم إلى ساحلها فيقضون العمر في بناء الرأي، بعيدين عن الواقع الاجتماعي أو متواصلين معه) . بل قد شغله ذلك حتى على تدوين تفسيره

وما أنتجه فكره وما وصل إليه من اجتهاد، وكان يقول : (شغلنا بتأليف الرجال عن تأليف الكتيب) ، والمتأمل في جملة ما تركه ابن باديس من تأليف لعدت قليلة بالنسبة لعقله الموسوعي وهذا المنهج العلمي الذي اتبعه بقدر ما فيه من إيجابيات ألا وهي العناية بالنشء . (انظر : جمال الدين ، ٢٠١٠ : ٢٧) . وقد جُمع كثير من آثاره العلمية بعد وفاته ، نظرا لتركيزه على النواحي العملية بدلا من الكتابة و التأليف ، و نذكر منها :

- "تفسير ابن باديس" : نشره الاستاذان حمد صالح و توفيق محمد ، نقلا عن "مجالس التذكير" الذي طبع في عام ١٩٤٨ م.
- "مجالس التذكير من حديث البشير النذير" طبعه وزارة الشؤون الدينية بالجزائر عام ١٩٨٣ م.
- "العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية و الأحاديث النبوية" ، و هي الدروس التي ألقاها على التلاميذ و قد جمعها تلميذه محمد الصالح .
- كتاب "رجال السلف و نساؤه" و هي مجموعة مقالات نشرت في مجلة الشهاب .
- تحقيق كتاب "العواصم من القواصم" للإمام ابن العربي و طبعه عام ١٩٢٨ م . (حميداتو ، ١٩٩٧ : ٨٢) . و لعل أبرز الجهود العلمية تتركز على ما يلي :-

1. المكانة الفكرية للشيخ ابن باديس :

تتجلى مكانة الشيخ ابن باديس الفكرية و العلمية ، بشخصيته القيادية التي ساعدت لتقبل الشعب لها و ما تدعو إليه ، فبدأ مسيرته العلمية بتفسير القرآن الكريم و إلقاء الدروس المتخصصة بالتفسير على طلبته منذ عام ١٩١٤ و ختمه في عام ١٩٣٨ ، ولكنه لم يكتب منه الا قليلا ، فلم يكن الشيخ يكتب من التفسير ما يلقي ، و لم تكن آلات التسجيل شائعة الاستعمال . (مرجع سابق ، ١٩٩٧ : ٨٠) . الا أنه كتب بعض مجالس التفسير ضمن سلسلة مقالات بمجلة الشهاب و هي موجودة حتي يومنا هذا ، جمعت بعد وفاته في كتاب تحت عنوان " مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير " . كما أنه رحمه الله ، شرح موطأ الامام مالك ، و لكنه أيضا لم يكتبه ، و ما وصل إلينا الا ما نشره في مجلة الشهاب ، و جمعت في كتاب تحت عنوان " مجالس التذكير من حديث البشير النذير " . و عدم التألف و الكتابة في البدايات لا يعد من سلبيات فكر ابن باديس ، خصوصا اذا عرفنا سبب تجاهل الكتابة ، و التركيز على النواحي الإصلاحية العملية و التطبيقية كما سنوضحه لاحقا ، فابن باديس يريد لهذه الحركة أن ترسخ في نفوس الناس عمليا و ليس نظريا ، و قد ركز رحمه الله على الجانب التطبيقي ليتعود الناس على المنهج بدلا من قراءته . يذكر البشير الابراهيمي هذا و يفسر عدم اهتمام ابن باديس بالكتابة بقوله : (كان يرى أن في تفسيره بالكتابة مشغلة عن العمل

المقدم ، لذلك أثر البدء بتفسيره درسا تسمعه الجماهير). (مقدمة مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير). أما النشاط السياسي الأكبر الذي قام به ابن باديس منذ بدأ دعوته إلى الله فهو الدعوة إلى العودة إلى الإسلام الصحيح خال من الشوائب والخرافات في الاعتقاد والتشريع وكذلك الدعوة إلى الاهتمام باللغة العربية. جاءت فرنسا إلى الجزائر لتحارب الإسلام والعربية، وتحارب الجزائريين الذين يعتزرون بانتمائهم للإسلام واللسان العربي، فنجح ابن باديس أيما نجاح في بث الشعور بالانتماء للإسلام ولغته. (جمال الدين ، ٢٠١٠ : ٢٣).

2. تأسيس جمعية التربية والتعليم الإسلامية :

وهي أول جمعية إسلامية تعنى بالتربية والتعليم ، يرخس لها في مدينة قسنطينة ، ويقول ابن باديس عن تأسيس الجمعية (في عام ١٩٣٠ رأيت أن أخطو بمكتب التعليم خطوة جديدة ، وأخرجه من مكتب جماعة إلى مدرسة جمعية ، فحررت القانون الأساس لجمعية التربية والتعليم الإسلامية ، وقدمته باسم الجماعة المؤسسة إلى الحكومة ، فوقع التصديق عليه). (نشرة جمعية التربية والتعليم الإسلامية بقسنطينة سنة ١٩٣٦). وقد جاء بالقانون الأساسي للجمعية أن هدفها نشر الاخلاق الفاضلة و المعارف العربية و الفرنسية ، و عدم الخوض في الامور السياسية تفاديا للاصطدام بالسلطات ، و تأسيس مكتب لتعليم أبناء المسلمين الذين لم يتمكنوا من الالتحاق بالمدارس الحكومية ، و تثقيف أفكارهم بالعلم باللسانين العربي و الفرنسي . و تأسيس ملجأ للأيتام و معمل للصنائع و ورش يتدرب فيها الطلبة على مختلف الحرف ، حتي اذا ما تخرجوا سهل اندماجهم في الحياة العامة . (حميداتو ، ١٩٩٧ : ٩٢). و كان الاقبال على الجمعية منقطع النظير لأنها قدمت البديل الذي ينتظره الشعب ، فكان التفاعل التي تطلبه النفس الطيبة على حد تعبير البشير العلوي اذ يقول : (إن إقبال الأمة على جمعيتكم المباركة و خنوعها لما تلقىه عليها من دروس العلم الصحيح ، و تيقنوا أن هذه الانوار السماوية التي أشرفت بوارقها في ظلماء النفوس لا تستطيع و لن تستطيع أي قوة مها كان شأنها أن تطفئ اشعتها أو تحجب لآلها). (جريدة البصائر ، العدد ٣ السنة الاولى ص : ٧).

3. تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين :

في سنة 1927م، تم تأسيس "نادي الترقى" في مدينة الجزائر، وكان من أهدافه تثقيف مسلمي الجزائر، وإعانة الفقراء، وقد استدعى مؤسسو هذا النادي الشيخ "الطيب العقبي" ليقوم فيه بالوعظ والإرشاد على غرار ما يقوم به الشيخ عبد الحميد بن باديس في قسنطينة. وقد ألقى ابن باديس فيه محاضرة عند افتتاحه، واستمر يتعهده بالمحاضرات ودروس التفسير كلما حل بالعاصمة. وكان

لهذا النادي شرف احتضان الجلسات التمهيدية لتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، قبل أن يصبح مقرها الرئيس في العاصمة. في هذه الظروف المشحونة بالتحدي والاستفزاز من قِبَل المستعمر من جهة، وإحساس الأمة الجزائرية بسوء الحال التي هي عليها، وشعورها بلزوم إصلاح عام يشمل الدين والعلم والاجتماع، من جهة أخرى، في هذه الظروف ظهرت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين رسمياً للوجود، في 5 مايو سنة 1931م. (جمال الدين ، ٢٠١٠ : ٣٧). وقد انتخب أعضاؤها: الشيخ عبد الحميد بن باديس بالإجماع رئيساً لها، في غيابه، والشيخ محمد البشير الإبراهيمي نائباً له.

أهداف الجمعية :

لقد كان ابن باديس ورفاقه أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، من الحصافة بمكان، حيث أبدوا أشياء وأضمرها أخرى، مكتفين في تصريحاتهم الرسمية بإعلان الدعوة إلى الإصلاح الديني والتعليمي حذرًا. فقد جاء على لسان رئيسها: (أن الجمعية يجب أن لا تكون إلا جمعية هداية وإرشاد، لترقية الشعب من وهدة الجهل والسقوط الأخلاقي، إلى أوج العلم ومكارم الأخلاق، في نطاق دينها الذهبي وبهداية نبيها الأمي، الذي بُعث ليتمم مكارم الأخلاق، عليه وآله الصلاة والسلام). (حميداتو ، ١٩٩٧ : ٢٠).

ويمكننا القول بأن الجمعية ركزت في مراحلها الأولى على الأهداف التالية:

- إصلاح عقيدة الشعب الجزائري، وتنقيتها من الخرافات والبدع، وتطهيرها من مظاهر التخاذل والتواكل التي تغذيها الطرق الصوفية المنحرفة.
- محاربة الجهل بتنقيف العقول، والرجوع بها إلى القرآن والسنة الصحيحة، عن طريق التربية والتعليم.
- المحافظة على الشخصية العربية الإسلامية للشعب الجزائري، بمقاومة سياسة التنصير والفرنسة التي تتبعها سلطات الاحتلال. (جمال الدين ، ٢٠١٠ : ٣٩).

المبحث الثاني : مظاهر المنهج الإصلاحي في فكر ابن باديس:

بعد فترة مركزة في طلب العلم و الاعتكاف في مجالس العلم الشرعي في تونس و الحجاز ، و غيرها من المحطات التي مر بها ابن باديس في رحلته لطلب العلم و الاستزادة منه ، و مرافقة العلماء و التفكير في هموم

الأمة العربية والإسلامية ، و محاولة تصحيح حالها ، رجع الشيخ عبدالحميد بن باديس إلى بلده الجزائر محملاً بالرغبة العارمة بالإصلاح ، و الرغبة الداخلية الصادقة هي بداية الإصلاح ، رجع بعد اقتناعه بوصية الشيخ حسين الهندي أثناء لقائه به بالمدينة المنورة ، حيث أقنعه أن الحل في وجوده بالجزائر بين أهله و شعبه . استطاع ابن باديس بعد خمس سنوات قضايا خارج الجزائر أن يضع المنهج ، و يحدد الأهداف ، و ينظم الرجال ، و يعد العدة لمواجهة الاحتلال الفرنسي من عدة جهات كلها تصب في تعليم الإسلام و العربية ، و تثبيت العروبة و الهوية ، و محاربة الجهل و الأمية . (عبدالله ، ٢٠١٥ : ٩) .

أدرك ابن باديس أن الخروج من هذا النفق المظلم الذي تعيشه البلاد لا يمكن إلا عن طريق التعليم ، و لذلك اختار (العلم) و (التعليم) أساساً لمنهجه التربوي الإصلاحى ، و بالرغم من العزلة السياسية و الاجتماعية التي فرضتها سلطات الاحتلال الفرنسي على الجزائر ، إلا أن ابن باديس استطاع الاتصال بالعالم الإسلامى من حوله ، و فتح قنوات التواصل و التبادل الفكرى . و كنتيجة لهذا المنهج الإصلاحى الذي ارتكز على (التربية) بدأ ابن باديس بنشر دعوته في الإصلاح و التغيير عن طريق المدارس و النوادي و دروس الحضارة الإسلامية و تفسير القرآن الكريم و الحديث الشريف ، و التي أخذ يلقبها على طلبته في الجامع الكبير و الجامع الأخضر في مدينة قسنطينة مسقط رأسه . (مقبل : مرجع سابق ص : ٧) .

و يعلل جورج الراسى توجه ابن باديس إلى طريق التربية و التعليم الإصلاحى هو ما وصل إليه الجهاد المسلح من طريق مسدود ، و بذلك كانت الحاجة لابتكار طريقة جديدة أخرى لمواصلة الجهاد بصورة مختلفة عن السلاح ، و استبدال البندقية بالقلم ، و السيف بالكتاب ، فكانت النتائج أفضل مما كانت . يقول جورج الراسى في هذا السياق (عندما وصل الإسلام السياسى بدوره إلى طريق مسدود أمام تعنت و عنصرية الغزاة ، ظهر الإسلام الإصلاحى مع جمعية علماء المسلمين الجزائريين بزعامة ابن باديس ، التي حاولت عن طريق التربية و التعليم و الصحافة أن تستعيد بعضاً من المساحة الحضارية و بعضاً من الشخصية الوطنية بأبعادها العربية و الإسلامية) . (الراسى ، ١٩٩٧ : ١٧١) .

تمثل المنهج التربوي الإصلاحى في فكر ابن باديس بتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في عام ١٩٣١ م و كانت جمعية دينية تسعى إلى العمل من أجل تنقية الدين من الشوائب و البدع ، و نشر اللغة العربية ، و إنشاء المدارس و النوادي . و يصف فنان الجمعية بأنها : (بمثابة الأرضية الأيدولوجية الصلبة التي تقف عليها الحركة الوطنية) . (فنان ، ١٩٩٤ : ١٨٦) .

و يتمثل المنهج التربوي الإصلاحى أيضا بتأسيس نادى الترقى عام ١٩٢٦ و كان بمثابة النور الذى يجمع المثقفين و طلاب العلم و الفكر فى لقاءات ثقافية و تربوية شكلت نهضة إصلاحية مهدت للحرية ، كل هذا كان نتاج تأثير المنهج التربوي الإصلاحى عند ابن باديس بحركات الإصلاح فى المشرق العربى ، و فقد كانت حركته وثيقة الصلة بمؤثرات حركة التجديد الإسلامى التى بدأها فى الشرق الإسلامى الشيخ محمد بن عبد الوهاب (ت : ١٧٩٢) و استكمالا بحركة التنوير التى قادها جمال الدين الافغانى (ت : ١٨٩٧) مرورا بتلميذه محمد عبده (ت : ١٩٢٥) و محمد رشيد رضا (ت : ١٩٣٥) و عبدالرحمن الكواكبى (ت : ١٩٠٢) و غيرهم من رواد حركة الإصلاح التربوي . كانت نتائج هذا الاحتكاك الفكرى بهؤلاء الرواد ، هو ولادة حركة النهضة التربوية الجديدة فى الجزائر على يد قائدها و معلمها الشيخ عبد الحميد بن باديس . يؤكد هذا ما ذكره ياسين فى دراسته أن (الشيخ بن باديس تأثر بأعلام الفكر و المصلحين العرب و المسلمين ، و الذين التقى بهم خلال رحلته فى طلب العلم و سفراته المتكررة إلى بلاد المشرق ، فكانت لهذه اللقاءات الأثر الكبير على شخصيته و نضوج أفكاره و طروحاته السياسية و الفكرية فخط لنفسه منهجا جديدا و واضحا استطاع من خلاله أن يضع للجزائر مشروعا سياسيا و هو جزء من مشروعه الإصلاحى المتكامل و الشامل) . (ياسين ، ٢٠١٣ : ٢) .

يذكر عويمر (أن مشروع ابن باديس الإصلاحى جاء نتيجة للظروف التاريخية التى مرت بها الجزائر المستعمرة و لم يجرى نتيجة تأثير مباشر بأفكار محمد عبده ، و المشروع الإصلاحى عند ابن باديس يتمثل بالمقام الأول فى تركيزه على تربية النشء كوسيلة لتحضير مستقبل الجزائر و توعية الشعب الجزائرى ، و من هنا عمل ابن باديس على تلافى الأخطاء المنهجية التى سار على خطاها رواد المشروع التحررى حيث ركز الافغانى و الكواكبى على التغيير السياسى ، فى الوقت الذى اهتم فيه محمد عبده بالتغيير عن طريق التربية و التعليم . (عويمر ، ٢٠٠١ : ٤٣) .

المبحث الثالث : الآثار التطبيقية للتربية الإصلاحية :

من الصعب إغفال الآثار التطبيقية لهذه التربية الإصلاحية و التى بدأت غريبة على المجتمع الجزائرى الذى سادت فيه أنواع مغايرة و ذات توجهات مختلفة تماما عن التوجه الإصلاحى ، فقد ساد فى تلك الفترة نوع من التربية ذات الصلة بالتصوف بينما اتسمت دعوة ابن باديس بأنها دعوة دينية سلفية خالصة تتميز بالانفتاح و التجديد و تجافى الجمود و الانغلاق ، و تقاوم الاندماج ، و تنادى بالمحافظة على الصبغة العربية الإسلامية

للجزائر . يؤكد ابن باديس هذا بقوله (و نحن ينبغي هنا أن نربي أبناءنا كما علمنا الإسلام ، فإن قصرنا فلا نلومن الا أنفسنا ، و لنكن واثقين أننا نبني على الماء ما لم نعد الأبناء بعدة الخلق الفاضل و الادب الديني الصحيح) (مجلة الشهاب عدد نوفمبر ١٩٣٥) . في هذا الوقت ، تدهورت الحالة الاجتماعية و الاقتصادية و الفكرية و الدينية للمجتمع الجزائري ، فحلت اللغة الفرنسية محل اللغة العربية ، و حوصر الدين في أضيق نطاق ، و ما بقي منه عبث به أصحاب الطرق الصوفية المنحرفة ، الذين خدروا الشعب بنشر الخرافات و البدع بما لهم من سلطان على الأرواح و الابدان . (حميداتو ، ١٩٩٧ : ٤١) . أن الطرق الصوفية رغم الدور الايجابي الذي قامت به في بعض الأحيان في مقاومة الاحتلال الفرنسي ، إلا أنها كثيراً ما انحرفت في ما بعد عن الخط العام الذي رسمه مؤسسوها الاوائل فكثرت عندها البدع و الضلالات و الخرافات ، و تقديس القبور و الطواف حولها ، و النذور لها ، و الذبح عندها ، و غيرها من أعمال الجاهلية الاولى . (مرجع سابق : ٤٤) .

كان ابن باديس يدرك أن الجزائر تواجه استعماراً مادياً فرنسياً ، واستعماراً معنوياً طريقياً صوفياً ، وأنهما متحالفتان معاً ضد الشعب الجزائري . ورأى ابن باديس أن البدء بمحاربة الطرقية و الصوفية المنحرفة هو المدخل السليم لمحاربة الاستعمار الفرنسي . و هذا المنهج من ابن باديس سابق على إنشاء الجمعية لكنه مع إنشاء الجمعية أصبح منهجاً جماعياً تقوم به جمعية تضم عدداً من العلماء و مئات المدرسين من خلال مدارس الجمعية ، ولم يعد أمراً فردياً يقوم به ابن باديس . (شحاته ، ٢٠١٣ : ١٢) .

و لسنا بصدد ذكر طرق الصوفية و تقييم دورها و سيطرتها على عقول أتباعها و مريديها و نشر الكسل و تثبيط الهمة في الاستعداد للكفاح ، و لسنا بصدد ذكر المدارس البديلة التي افتتحها الاستعمار لتجريد الشعب الجزائري من هويته و شخصيته العربية الإسلامية ، و قتل الروح الوطنية فيه ، بل نذكر هنا تلك الآثار التطبيقية التي ترتبت على التربية الإصلاحية ، و التي أثمرت بتأسيس مدارس معتدلة ، ذات منهج فكري إصلاحية تطبيقي ، ملتزم بالكتاب و السنة النبوية الصحيحة . انطلقت منذ البداية بمقالات مجلة الشهاب التي حذرت و أوضحت حكم التعبد و زيارة القبور و التبرك التي انتشرت في المجتمع الجزائري ، و بينها ابن باديس من خلال فتاوى شرعية لم يعهدها المجتمع الجزائري حيث يقول : (و لا يخلو اليوم قطر من أقطار الإسلام في الغالب من ضريح أو أضرحة تزار و تشد أليها الرحال) . (مجلة الشهاب العدد ٤ السنة الاولى ص : ١٦) . و من هنا بدأت حركة الإصلاح التطبيقي و التي بعثها رواد النهضة من أمثال عبدالحميد بن باديس ، و محمد البشير الابراهيمي ، و الطيب العقبي غيرهم ، من المصلحين الذين يرون أن الأمة الجزائرية هي قطعة من الامة الإسلامية و العربية و دينها التوحيد و لغتها العربية . و لعل من أبرز هذه الآثار و التي كان لها دور بارز

في بعث الروح العربية و الإسلامية من جديد بفكر تربوي إسلامي اصلاحي ، تطبيقا عمليا على أرض الواقع ، يمتد بجذوره إلى أصوله الصحيحة ما يلي :

أولاً : حلقات التدريس التي كان ابن باديس يلقيها بعد عودته من رحلاته ، و لم يكتف بتعليم الكبار في المساجد فحسب ، بل كان يهتم أيضا بالناشئة الصغار و عن ذلك يقول : (فلما يسر الله لي الانتصاب للتعليم سنة ١٣٣٢ للهجرة ، جعلت من جملة دروسي ، تعليم صغار الكتاتيب القرآنية بعد خروجهم منها إلى آخر الصبيحة و آخر العشية . فكان ذلك أول عهد الناس بتعليم الصغار) (آثار ابن باديس ، مجلة الشهاب ج ١٢ نوفمبر ١٩٣٤ ص ٧٠). يوضح قاسم ١٩٧٩ تطبيقات هذا بقوله : (بدأ ابن باديس فلسفته النظرية و العملية بمحاولة إحياء القرآن في قلوب مسلمي الجزائر ، حتى يبعثهم إلى الحياة بدورهم ، و كان هذا الإحياء للقرآن عن طريق تفسيره وفقا لمنهج السلف ، و معنى ذلك أنه أراد تطهير العقائد من الأوهام و الأباطيل التي شوهتها ، فجلعت الدين يبدو في نظر كثير من المؤمنين به كما لو كان مضادا للعقل ، كما ثبتت مفاهيم دينية خاطئة انتهت بتثقيف الأمة و كادت تقضي على مقوماتها الأساسية). (قاسم ، ١٩٧٩ : ٨٣). نذكر هذا في وقت انتشر فيه نوع آخر من التعليم ، و هو تدريس المبادئ الصوفية و انتشرت مدارس الطرق في المجتمع الجزائري تنشر المفاهيم المخالفة و المغالية للشريعة الإسلامية و توجه الناس إلى ما لا ينبغي ، و يذكر الميلي أن (في بر الجزائري بحسب تحقيقات (دوبون) و (كوبلاني) ٢٣ طريقة صوفية ، لها ٢٩٥١٨٩ مريداً ، و عليها ٥٧ شيخا ، و ٦٠٠٠ مقدم و عندها ٩٤٩ زاوية و تجبي من الاخوان كل سنة ما يقدر بسبعة ملايين). (مجلة الشهاب ، العدد ١٣ السنة الاولى ص: ١٠).

ثانياً : الإفتاء ، حيث انتصب ابن باديس للفتوى مع التدريس و توسع الامر عند قيام الصحافة الإصلاحية و التي نشرت فتاوى تهم المجتمع و الناس ، فكانت الأسئلة الفقهية ترد من كافة القطر الجزائري فيجيب عليها في صفحات مجلتي الشهاب و المنتقد. و يعتبر هذا الامر إضافة جديدة و نوع من أنواع التجديد الفكري الإصلاحية ، فالفتوى لها بالغ الأثر في تقويم سلوك المؤمن و إزالة الجهل ، و تصحيح المسار ، و توثيق الصلة بين الأمة و علمائها ، و كثيرا ما ينصاع و يمتثل المؤمن المطيع لرأي فقهي من أهل الثقة و أهل العلم . يقول الدكتور ماهر الحولي : (إذا كانت الفتوى مؤصلة تأصيلاً شرعياً سليماً من التنطع ، معافاة من التسيب ، بعيدة عن الأقوال الشاذة ، نائية عن الأدلة التالفة ، مراعى فيها رضى الحق ، وملاحظاً بها مصالح الخلق ، فإن الفتوى تترك في الأمة آثاراً طيبة.) . (الحولي ، ٢٠٠٨ : ٧).

و هنا نذكر فتوى ابن باديس من قضية التجنيس التي دعت إليها السلطات الفرنسية الجزائريين لنيل المواطنة الفرنسية بل و فرضتها حتى ينسلخ المسلم الجزائري من ذاته الإسلامية ، أصدر ابن باديس فتوى تحرم التجنيس بالجنسية الفرنسية ، و بهذه الفتوى حافظ على الشخصية الجزائرية الإسلامية من الانسلاخ من حظيرة الإسلام ، و الذوبان . (ابن باديس ، ٢٠١٥ : ٣٢) .

ثالثاً : الإصدارات الشرعية و التربوية التي كان يكتبها ابن باديس سواء الصحفية أو المصنفات و الكتب بمختلف تخصصاتها ، بدءاً من تفسير القرآن الكريم في عام ١٩١٤ ، و شروح موطأ الامام مالك ، و قد جمعت هذه المؤلفات التي كان أغلبها ينشر بمجلات جمعية العلماء المسلمين و لعل أبرزها ، (مجالس التذكير) و (العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية و الأحاديث النبوية) ، و (رجال السلف و نساؤه) ، و (تحقيق كتاب العواصم من القواصم) للإمام ابن العربي . و غيرها من الإصدارات التي جمعت لاحقاً من مقالات نشرت بالمجلات و الجرائد . و كانت هذه الإصدارات الشرعية تعتبر مرجعاً فقهياً يسلط الأضواء على كثير من القضايا المعاصرة برؤية شرعية لا تجدها في مكان آخر ، مثال على ذلك (قضية التجنيس الفرنسية) و ما هو حكم من أخذ الجنسية الفرنسية من الجزائريين ، و غيرها من القضايا ذات الطابع الخاص بالمجتمع ، و التي لا يمكن أن يستوعب مضمونها الا رائد و مصلح من المجتمع ذاته لا من خارجه ، و هنا نشير مرة أخرى على وصية الشيخ الهندي لابن باديس بالرجوع إلى الجزائر و بدء العمل هناك بدلاً من المكوث بالمدينة المنورة .

رابعاً : العلم و المعرفة عند ابن باديس له مكانة خاصة ، فقد استحوذت موضوعات العلم على اهتمامه و شغلت فكره و حياته ، و عمل جاهداً في محاربة الجهل و التخلف ، و لكنه في الوقت ذاته لم يكتف بمجرد العلم ، بل أسقط تطبيقاته على الواقع الذي يعيشه ، فسارع في بناء المدارس و نشر الصحف التربوية ذات المواضيع العلمية و العملية ، التي تبصر الناس بحالهم . فقد بلغ ما فتح من مدارس في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين حتى عام ١٩٤٥ حوالي ١٥٠ مدرسة ، موزعة في مختلف أنحاء الجزائر ، و قد وصل عدد تلاميذها إلى أكثر من ٤٠ ألف طالب أي ثلث عدد التلاميذ المسجلين في المدارس الفرنسية في ذلك الوقت .

خامساً : ظهور القدوة ، فإن هذه المسيرة التربوية الإصلاحية ساهمت في توثيق صلة ابن باديس بالشعب عامة و جماهير المساجد على وجه الخصوص ، و تأثر به الطلاب و جموع الناس ، لما يرونه من تسهيلات و توضيحات قدمها هذا العالم من أجل بلده ، الأمر الذي خلق قدوة تقتدي به العامة ، و تنهج نهجه ، و تستنير بعلمه ، في فترة خلت من العلماء العاملين ، و صفت بأنها خواء و فراغ فكري و منهجي ، تعطشت له الجماهير و الشعوب ، و بعث فيها روح الأمل من جديد على عالم جليل من أسرة ثرية لا ينقصه شيء ، فترك الثراء و الراحة و انبرى للعمل و الجهاد الفكري و بدأ بالمنهج الإصلاحي .

سادسا : إصلاح المناهج التربوية ، فقد كانت المناهج في عصره غير معتدلة سواء في صورتها أو مادتها لإهمالها كثيرا من المبادئ الإسلامية و هو يرى : (أنه لا يصلح هذا التعليم إلا إذا رجعنا به للتعليم النبوي في شكله و موضوعه . في مادته و صورته) . (مرجع سابق ص: ٧٤) . ليس هذا فحسب ، بل أنه انتقد منهج جامع الزيتونة ، و الذي يعد في وقته أبرز المنارات الفكرية ، و هو عبارة عن كلية دينية يتخرج منها رجال القضاء و الفتوى ، و رجال الإمامة و الخطابة ، و رجال التعليم . (حميداتو ، ١٩٩٧ : ١٤٠) . حيث أن ابن باديس رأى أن مناهج الدراسة فيه تعتمد اعتمادا كليا على النواحي النظرية و تطيل الشرح فيها ، بصورة تخل بالنواحي التطبيقية و التي يراها أهم و أشمل ، و يؤكد ابن باديس (قد حصلنا على شهادة العالمية من جامع الزيتونة و نحن لم ندرس آية واحدة من كتاب الله) . (مجلة الشهاب عدد رجب ١٣٥٣) . و يصف اهتمام الجامع بالإشكالية النظرية و صرف الطلبة عن الاستنتاجات التطبيقية ، و هو ما لا يؤمن به ابن باديس . فيقول : (و في جامع الزيتونة عمره الله تعالى ، اذا حضر الطالب بعد تحصيل التطويح في درس التفسير و يا للمصيبة ، يقع في خصومات لفظية في القواعد التي كانت يحسب أنه فرغ منها من قبل ، فيقضي في خصومة من الخصومات أياما و شهورا ، فتنتهي السنة . و هو لا يزال حيث ابتدأ) . (مجالس التذكير ص: ٢٥١) . و قد قدم ابن باديس مذكرة شملت اقتراحا لإصلاح التعليم و المناهج بجامع الزيتونة ، ركز فيها على التربية الإصلاحية و تطبيقاتها .

سابعا : اتاحة الفرصة لتعليم المرأة ، و لقد أولى ابن باديس تعليم المرأة المسلمة اهتماما كبيرا ، مدركا الخطر المحقق بالأمة إذا تركت المرأة بغير تعليم ، فقد كان أهالي الجزائر يمنعون بناتهم من الذهاب إلى المدارس الحكومية ، لأن القائمين عليها ليسوا مسلمين ، بل و استمر الأمر إلى أن منعوهن من الكتاتيب غيرة على الاعراض و حفاظا على الدين في نظرهم .

بقيت المرأة بعيدة عن التعليم إلى أن ظهرت بوادر حركة الإصلاح و التجديد التربوي الذي جاء به ابن باديس و نادى بضرورة تعليم البنات و توفير المكان المناسب لهم دون اختلاط ، معطيا بذلك روحا جديدا للتعليم في الجزائر لم يكن معهودا فيها . (مرجع سابق : ١٦) . تأتي مبادرة ابن باديس بمجانية تعليم المرأة لتشجيعها على التعلم كصورة من صور التجديد التربوي غير المسبوقة ، و تطبيقا للتربية الإصلاحية التي نادى بها . يذكر أن الجمعية افتتحت أول مدرسة للبنات عام ١٩١٩م ، مما يدل على سعة أفقهم فيما يتصل بتعليم المرأة ، و من مبادرات ابن باديس تشجيع المرأة على طلب العلم و إقرار مجانية التعليم للبنات و في هذا يقول ابن باديس : (ندعو إخواننا المسلمين إلى المبادرة بأبنائهم و بناتهم ، إلى مكتب جمعية التربية و التعليم ، فأما البنون فلا

يدفع منهم واجب الرسوم إلا القادرون ، و أما البنات فتعليمهن كلهن مجانا ، لتكون منهن بإذن الله المرأة المسلمة المتعلمة . (مقبل ، ٢٠١٥ : ١٨) .

ثامنا : اقتحم ابن باديس ميدان الصحافة و دخل عالمها حتى رسم فيها عالمه الخاص ، و قال في افتتاحية العدد الاول من جريدة (المنتقد) باسم الله ، ثم باسم الحق و الوطن ، ندخل عالم الصحافة العظيم ، شاعرين بعظمة المسؤولية التي نتحملها فيه ، مستسهلين كل صعب في سبيل الغاية التي نحن إليها ساعون ، و المبدأ الذي نحن عليه عاملون) (المنتقد ، العدد الاول ، الصفحة الاولى) . أدرك ابن باديس ضرورة اصدار صحف ناطقة بمبادئ التربية و التوجيه و الإصلاح و التجديد ، فأنشأ بعدها مجلة الشهاب و التي استمرت حتى عام ١٩٣٩ ثم مجلة البصائر ، و لسنا بصدد حصر المجلات و الصحف التي أسسها ابن باديس بقدر ما نوضح مدى اتساع الجهود الإصلاحية التي بذلت في سبيل تحقيق غايات نبيلة و أهداف سامية ، تساهم في حركة الإصلاح و التجديد . (الميلي ، ١٩٨٠ : ١٢) .

تاسعا : و لعل من أبرز آثار التربية الإصلاحية التطبيقية ، هي خطة النهضة الشاملة التي رسمها ابن باديس في مجال الإصلاح الديني و الاجتماعي الوطني ، حيث رأى في التربية و التعليم و الصحافة الوسيلة الناجعة لتحقيق أهداف النهضة المرجوة لطرد المحتلين بصورة سلمية لا تقصي أحدا ، فكانت هذه الخطة سببا في نهضة الشعب الجزائري . و هنا تتجلى سعة أفق هذا الفكر التي اتسم بالتسامح و تقبل الرأي الآخر ، فقد أكد على هذا ابن باديس بقوله : (عاش النصارى و اليهود و المجوس في الشرق و الغرب في حجر الإسلام و تحت سلطانهم قرونا طويلا فما أكرهوا على إسلام ، و لا نصب لهم ديوان تفتيش ، و لا أرهقوا بالضرائب ، و لا اقتيدوا للموت في سبيل الإسلام ، و لا انتزعت أراضيهم بأفانين الاحتيال ، و لا منعوا من قراءة دينهم و لغتهم بوجوه المنع ، و لا أخذت أموال بيعهم و كنائسهم و تركت تعيش بالتقتير و الاستجداء دانية للخلاء و الخراب ، و لا تعرض للطعن و لا التشهير بأديانهم و أعراضهم و عظمائهم بالزور و البهتان ، و لا خصصوا بأحكام استثنائية في قانون العدل العام ، بل كانوا لهم ما للمسلمين و عليهم ما عليهم يبلغون من العلم و الجاه و الثروة تحت لواء العدل الإسلامي حيث يستطيعون) . (مجلة الشهاب العدد ٦ السنة الاولى ص : ١٧) .

المبحث الرابع : الموازنة الفكرية بين النظرية و التطبيق

من أهم الأهداف التي تخدمها عملية تحصيل العلوم بصفة عامة هو هدف إمكانية تطبيق هذه العلوم ليستفيد منها الإنسان في أي مستوى اجتماعي سواء أكان فردا في أسرة أم في مدرسة أو عضوا في وزارة أو في حكومة ،

وهكذا. يمكن القول انه لا فائدة من العلم اذا لم يلزمه التطبيق . فاذا حصل وانفصلت عملية التطبيق عن النظرية فان النتائج ستكون سلبية أو تكون أقل فاعلية مما لو اكتمل العلم بعملية التطبيق. ولا شك أن الحكومات في كثير من الدول المتقدمة والدول النامية تعطي اهتماما خاصا للعلوم بنوعها النظري والتطبيقي. ويمكن الاستدلال على ذلك بالنظر في اهتمام الدول بفتح المعاهد الخاصة والعامّة التدريبيّة والتطبيقية وذلك ضمن سياسات هذه الدول لدفع عجلة التقدم والتنمية نحو الأفضل ومن أجل خلق جيل من القيادات الواعية المسلحة بالعلم وخبرة التطبيق. كما أن فروع التعليم ازدادت وتفرعت حتى شملت تقريبا كل نواحي الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية. وخير شاهد على ذلك ما للناحية التطبيقية من نصيب متزايد في ميزانيات هذه الدول ومن تزايد أعداد المتخصصين في مجالات تطبيقية تغطي كافة مجالات الحياة الحديثة في المدن والقرى على حد سواء. (يحيى ، ٢٠١٠ : ١٧) .

تتجلى صور الموازنة في تطبيق النظريات و الأدبيات التي استقاها من خبراته و احتكاكه بمصادر المعرفة و العلم و اجتماعه بعلماء دول الجوار و المشرق العربي ، و بالتالي تكونت لديه نظرية واضحة للتربية الإصلاحية التي يؤمن بها كمخرج و حل لشعبه الذي عانى الأمرين من ويلات الاحتلال ، و لكن هذه المعرفة لا تكفي وحدها للوصول إلى الغاية النبيلة و لا تحقق الهدف المنشود الا إذا اقترنت بألية مناسبة للتطبيق على أرض الواقع . و من خلال الاستقراء و اتباع مراحل التكوين في جميع المؤسسات التي أسسها ابن باديس سواء التربوية منها كالمدارس و دور العلم و الصحف و المجلات ، أو التنظيمية و الإدارية كالجمعيات و المؤتمرات الإقليمية منها و العالمية ، بالنظر إلى هذا كله ، تتجلى لنا الصورة الكاملة بل المتكاملة بين النظرية و التطبيق في فكر ابن باديس ، فدائما ما تقترن التربية الإصلاحية عنده بالنظرية الثابتة و التطبيق الملتزم . و يتضح هذا جليا بالنظر إلى الكليات و الجزئيات و التي تناغمت في فكره بصورة قل ما نشاهدها في تجارب التربية المعاصرة .

لقد حاول ابن باديس في خطابه الإصلاحية الواضح و الشامل تقديم الإسلام بطريقة صحيحة مبنية على نقل صحيح و عقل صريح ، مع مراعاة مقتضيات الزمان و المكان و الحال . هذه الواقعية اقتضت من ابن باديس الثبات في الكليات و التيسير في الجزئيات و الحفاظ على الأهداف مع تنويع الوسائل ، و من ثم الانتفاع بكل ما هو جديد بلا ذوبان ، و الترحاب بكل شيء نافع و صالح ، و الاستيلاء من كل تعصب ممقوت ، و جمود مذموم ، و ضلال منكور . (عبدالله ، ٢٠١٥ : ٧) .

و من مظاهر التكامل في التربية الإصلاحية بين النظرية و التطبيق في فكر ابن باديس ، دعوته إلى الشمولية ، فمن خصائص خطاب الإصلاح عند ابن باديس مراعاة الشمولية عند مخاطبة الانسان ، و ذلك من منطلق أن

الإسلام رسالة للإنسان في كل مجالات و شؤون حياته ، لأجل ذلك لم يكن خطاب ابن باديس الإصلاحية مقتصر على جانب من جوانب الحياة البشرية ، وإنما حاول في خطابه استيعاب جميع جوانب الحياة التي تخدم الإنسان في كل أطواره . حتى في تفسيره للقرآن الكريم لم يقتصر على الخطاب الوعظي ، وإنما حاول أن يخرج من هذه الدائرة الضيقة إلى دائرة أوسع عندما تحدث عن أهمية اتخاذ أسباب تحصيل القوت ، و رغد العيش ، و توسيع العمران ، و تشييد المدينة و هذا كله يشمل الخطاب الاجتماعي و الاقتصادي و السياسي. (مرجع سابق : ١٣). هذه الشمولية تجلت أيضا في دعوته للعلم حين دعا الرجال و النساء على حد سواء باعتبار المرأة شقيقة الرجل و شريكته في البيت و الحياة و قد ذكرنا هذا سابقا بشيء من التفصيل .

النتائج و التوصيات :

بعد مطالعة و دراسة النواحي الإصلاحية في فكر و تربية الشيخ عبد الحميد بن باديس ، تتضح لنا صورة جميلة تكاد تتكامل بشكل متناغم بين المناداة و المطالب الفكرية النظرية من جهة ، و بين تطبيقاتها العملية على أرض الواقع من جهة أخرى ، و نستخلص من هذه الدراسة دروسا و حقائق نصيغها على صورة نتائج ، و وصايا توصيها الدراسة لمزيد من البحث و الدراسة و نذكر أهمها :

1. إن تطبيق القول بالعمل قيمة ذكرها القرآن الكريم ، و امتدح فاعلها بقول الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ، كبر مقتا عن الله أن تقولوا ما لا تفعلون) سورة الصف آية ٢ . و من هذا المنطلق تتجلى صور التطبيقات العملية للتربية الإصلاحية عند ابن باديس الذي قرن المبادئ بتطبيقات عملية تزامنت بتناغم ملحوظ مع آرائه النظرية . الأمر الذي أعطى مصداقية لدعوته و قبول بين الناس .
2. سعة أفق و مدارك الشيخ عبد الحميد بن باديس فيما يتعلق بتعليم المرأة ، فنجدته منذ البداية يعلن أن للمرأة نصيب في فكره و منهجه ، حيث دعا إلى تعليمها باعتبارها ركيزة المجتمع و أساسه الذي تبنى عليه الأجيال ، و يعد هذا سبق تربوي ، في وقت رفض كثير من المفكرين هذا التوجه و عده تخالفا مع العرف و الدين . و من هنا توصي الدراسة بالأخذ بأراء ابن باديس و طريقته في تطبيقات التعليم للبنات ، و الاستلهام من نظرياته في هذا الشأن ، فما أحوجنا إليها في وقتنا الحاضر .
3. الدعوة إلى تخصيص جانب للتربية في منهج الحركات الإسلامية ، فكثير من الجماعات و الحركات التي تنادي بالمنهج الإسلامي ، أخفقت في إعطاء جزء من جهودها للتعليم ، و اهتمت بالنواحي السياسية و التي غالبا ما تكون على حساب الجانب التربوي . ففي الوقت الذي سادت فيه النواحي السياسية في ظل الاحتلال الفرنسي للجزائر ، نجد ابن باديس يتجه لفتح المدارس و ينادي بتعليم المرأة ، في صورة

- رائعة لتطبيقات عملية للفكر التربوي الإسلامي ، الأمر الذي أثمر و انصب على المجتمع ، و ساهم في حفظ الهوية ، و الدين .
- 4 . تدعو الدراسة و توصي ، باهتمام الباحثين و المفكرين بمجتمعهم المحلي ، فابن باديس رجع إلى بلده بعد استكمال رحلته في طلب العلم ، و ساهم في بناء بلده لأنه أخبر الناس و أعلمهم في شؤون بلاده ، فالحلول لا تأتي من الخارج أبدا ، بل تأتي من فكر و أيادي أبناء البلد .
- 5 . التكامل و الاستفادة من جهود السابقين ، فابن باديس ذكر الفضل لأهله و لمن سبقه من الفضلاء و العلماء و المفكرين ، أمثال جمال الدين الأفغاني ، و محمد عبده ، و رشيد رضا ، و الشيخ الونيسي ، و الشيخ الهندي ، و من عاصره من زملائه أمثال محمد البشير الابراهيمي و الشيخ العقبي و غيرهم ، و استفاد من علمهم و تجاربهم ، ثم أضاف إليها ما لم يكن لديهم ، و بدأ من حيث انتهوا جميعا ، فلم ينكر فضلهم ، و لم يستتر جهودهم ، بل شكرها و باركها و أثنى عليها ، و هذه من أخلاق العلماء ، و هي صفات تجلب البركة و التوفيق للعمل ، و نوصي جميع من يعمل في حقل الدعوة و التربية لهذه الاخلاق السامية .
- 6 . نشر و عرض سيرة و فكر ابن باديس على الباحثين و الطلبة في الجامعات ، و تشجيعهم لإعادة كتابة فكره بصورة تتناسب مع الواقع المعاصر .

المراجع

- الزركلي ، خير الدين ، (١٩٧٩) . الأعلام _ قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين _ في ٨ مجلدات ، ط٤ ، دار العلم للملايين ، بيروت
- آثار ابن باديس ، مجلة الشهاب ج ١٢ شعبان ١٣٥٣ نوفمبر ١٩٣٤ .
- أسامة شحاته ، مجلة البيان _ العلامة عبد الحميد بن باديس- العدد مارس ٢٠١٣
- عبدالله ، بي زكوب (٢٠١٥) ، من خصائص الخطاب الإصلاحى في تفسير الامام عبدالحميد بن باديس – مجلة الامة الإسلامية العدد ١٦ ، ديسمبر ٢٠١٥ ، ماليزيا .
- رابح ، تركي (١٩٨٢) ، الشيخ عبدالحميد بن باديس رائد الإصلاح و التربية بالجزائر – الرياض ياسين، توفيق (٢٠١٣) ، العوامل المؤثرة على الفكر السياسي للشيخ عبدالحميد بن باديس ، مجلة سر من رأى ، المجلد ٩ ، العدد ٣٣ ، السنة التاسعة ، العراق .

جريدة المنتقد

فنان، جمال، (١٩٩٤)، قضايا و دراسات في تاريخ الجزائر الحديث و المعاصر ، منشورات المتحف الوطني للمجاهد ، الجزائر .

الراسي، جورج (١٩٩٧)، الإسلام الجزائري من الأمير عبدالقادر إلى أمراء الجماعات ، بيروت ، دار الجديد يحيى، حسن عبدالقادر، (٢٠١٠) ، العلم بين النظرية و التطبيق ، مقال في مجلة جامعة ولاية ميشيغان ، الولايات المتحدة الأمريكية .

مقبل، فهمي توفيق (٢٠٠٣). عبدالحميد بن باديس رائد الإصلاح و النهضة في تاريخ الجزائر الحديث ، مجلة الدرعية تاريخية محكمة ، الرياض العدد ٢٠ مارس ٢٠٠٣ .

محمود ، أبو عبدالرحمن (٢٠١٥). مجالس التنكير من كلام الحكيم الخبير عند عبدالحميد بن باديس ، الطبعة ٣ ، الجزائر . دار الرشيد.

الطالبي، عمار(١٩٦٨) ، ابن باديس حياته و آثاره ، ج١، الجزائر ، دار مكتبة الشركة الجزائرية .
مجلة البصائر ، لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

مجلة الشهاب ، الصادرة عن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين .

الميلي، محمد (١٩٨٠). ابن باديس و عروبة الجزائر ، الجزائر : الشركة الوطنية للنشر و التوزيع .

قاسم ، محمود (١٩٧٩). الإمام عبد الحميد بن باديس _ الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية _ ط٢٢ ، دار المعارف ، القاهرة ، ص٧

حميداتو، مصطفى محمد (١٩٩٧). عبدالحميد بن باديس و جهوده التربوية ، الدوحة : وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية كتاب الامة

عويمر، مولود(٢٠٠١). المصلح النائر الامام عبدالحميد بن باديس . مجلة المجتمع العدد ١٤٥٣ ، يونيو ٢٠٠١ ، دولة الكويت .

قمبر ، محمود (٢٠٠٦). دراسات إسلامية في الثقافة و التربية ، ط ١، الأردن : عالم الكتب الحديث .

النقيب ، عبدالرحمن (٢٠٠٤). المنهجية الإسلامية في البحث التربوي نموذجاً : النظرية و التطبيق ط ١ ، القاهرة : دار الفكر العربي .

الكندري ، لطيفة و ملك ، بدر (٢٠١٠) ، تربية الطفل في كتاب سير أعلام النبلاء ، مجلة الطفولة ، جامعة القاهرة العدد ٤ يناير ٢٠١٠.

مطبّقاني ، مازن صلاح (١٩٩٩) ، عبد الحميد بن باديس العالم الرباني والزعيم السياسي ، دار القلم – دمشق ، سلسلة أعلام المسلمين 28.

جمال الدين ، شيماء علي (٢٠١٠) ، الإمام عبد الحميد بن باديس ، رائد النهضة العلمية والإصلاحية بالجزائر ، مقال منشور في موقع : www.alukah.net شبكة الألوكة تابع الجديد والحصري على

الحوالي ، ماهر (٢٠٠٨) ، أثر الفتوى على الواقع : بحث مقدم لليوم الدراسي بعنوان التثبّت في الفتوى الذي تنظمه الكلية الجامعية للعلوم التطبيقية . قسم الدراسات الإنسانية ، الجامعة الإسلامية بغزة .